ليلة بلا نوم

كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة وأنا فى طريقى الى البيت ، وكنت مرهقا مكدودا ، ضيق الصدر بمتاعب اليوم ، ولم أجد هناك مايدفعني الى التعجيل بالعودة الى الدار ، وداخلنى احساس بالحاجة الى الانطلاق بالعربة فى الطرق الخالية بأطراف هليوبوليس .

ولم أعرج على البيت وتركت العربة تنطلق بى فى شارع السباق ، وأحسست من فراغ الطريق وسكونه وهبة الهواء الرطب التى لفحت وجهى بشىء من الانتعاش ، فتمهلت وأخذت أدندن بصوت خافت .

ولم يبدو على طول الطريق أثر لعابر ، وقامت الدور على يمينى ساكنة مظلمة الا من بضعة أضواء تناثرت من نوافذها ، وعلى اليسار امتد سور السباق المنخفض وقد ترامى وراءه الفراغ الفسيح يلفه وشاح من الوحشة والظلمة والصمت المطبق .

وعلى أضواء الطريق الباهتة .. ووسط سكونه المخيم بدا لى شبح امرأة تستحث الخطا . وترامى الى أذنى وقع خطواتها جادة متعجلة .. كأنها خطوات جندى فى طوافه .

وبغريزة الرجل .. ازددت تمهلا .. وأخذت أرقب شبحها المقبل .. الذى لا أكاد أميز منه سوى حدوده الخارجية وطريقة سيره .

وأنا أميز المرأة بطريقة سيرها وهيكلها .. وأكاد أحس بمدى جمالها أو قبحها من هذين المنظرين . ولا أظنهما خدعانى الا فى القليل النادر .. ولقد أحسست من خطوات المرأة المقبلة وتخطيط شكلها فى الضوء الباهت .. أنها شىء لطيف يستحق الرؤية .. أو أكثر من الرؤية ان أمكن .

وازداد تمهلى وهى تزداد اقترابا .. وأيقظت الوحدة والظلمة ونسمات المرأة المقبلة مشاعرى وأرهفت حواسى ، فانحرفت بالعربة الى الجانب الأقرب اليها – وهو جانب السباق – حتى أتمكن من رؤية وجهها .

وعندما دنت من العربة .. أحسست أن ضوء الطريق الخافت لن يهيىء لى فحصها جيدا .. وأضاءت ضوء العربة الكبير .. فسطع عليها فجأة وبدا عليها الضيق والانزعاج وبدت لى فى خطواتها العجلى وسيرها المندفع كطائرة أمسك بها ضوء كشاف وهى تحاول الفرار منه

وخرجت عن نطاق الضوء .. واستمرت فى سيرها العجل .. وخطواتها الجادة ، غير متلفتة حولها .. أو ملقية الىّ أدنى اهتمام .

ولم أحاول التوقف .. فقد كانت الفترة التي وضعت خلالها في نطاق الضوء . كافية لكشفها .. وكافية بالتالى لأن أواصل السير بعد أن أحسست أنه ليس بها مايجذبني اليها .. أو يغريني بها .. أو يهيىء لى فيها أى نوع من أنواع المغامرة . وبعد أن أيقنت أن المشية والهيئة قد خدعاني – الى حد ما – هذه المرة .

كان وجهها نحيلا .. شاحبا .. وقد بدت حول عينيها من تجاعيد الإرهاق والذبول .. ما دفع في نفسى الظن بأن عقدها الرابع يوشك أن ينفلت .

ودفعني الكسل وهزال الصيد الى معاودة الانطلاق بعربتى مفضلا الليل ونسماته الرطبة والاستمتاع بالسرحان والدندنة .

وواصلت السير في الطريق مخلفا ميدان السباق ، والعمارات الجديدة المشرفة على ساحته ، عابرا خط المترو الجديد حتى بلغت نهايته وأدرت العربة حول المحطة الأخيرة عائدا في طريقى من حيث أتيت .

ومرة أخرى .. بدا لى الشبح فى خطواته العجلى ومشيته الجادة الصارمة .. وسط الفراغ العريض والسكون الشامل .

وأدهشني استمرار المرأة فى السير بلا هدف واضح . فقد كنت أتوقع أن تكون قد اختفت فى احدى الدور التى لاشك تقصد اليها .

ولم تكن في سيرها مستعرضة ، ولاكان الطريق الخالى بميدان صيد .. حتى أظنها امرأة ليل تبغي صيدا .. ولاكان الوقت الذى تسير فيه أو المظهر الذى تسير به يدفعان الى الظن بأنها تمارس نوعا من الرياضة .

وعادت غريزة الرجل وحب الاستطلاع والرغبة فى المغامرة توقظ حسى وترهف أعصابى .. وكنت قد أشرفت عليها .. وأوشكت أن أجاوزها .. دون أن أستقر على أمر أو اتجاه .

وبلا خطة موضوعة .. أو تفكير مرتب .. أو هدف واضح .. أوقفت العربة .. وفتحت الباب .. وفى لهجة جادة مقتضبة قلت لها .

– تفضلى .

ولم أشك فى أنى قد فاجأت المرأة بدعوتى .. بل بمجرد وجودى .. وقفت تنظر الىّ على ضوء العربة الداخلى الذى أضاءه فتح الباب .. وقد بدت مشدوهة مأخوذة .. ومرت لحظة صمت .. حاولت خلالها أن أضع خطتى للحظات القادمة وردودى للاحتمالات المنتظرة .. ووسائلى لمقاومة التمنع المحتمل .

ولكن المرأة فاجأتنى مفاجأة أشد ، وبلا كلمة تمنع .. أو سؤال استفسار .. وفى ثانية واحدة .. كانت تستقر على المقعد بجوارى دون أن يختلج فى وجهها عصب أو تفتح شفة .

وسمعت صفقة الباب .. وساد السكون .. وعم الصمت الا من صوت أنفاسها تتلاحق لاهثة كأنها جواد فى سباق .

وسرت بالعربة .. ومضت برهة .. كان كلانا يشرد ببصره من زجاج النافذة الى الظلمات المترامية .. وكان علىّ أن أفيق من المفاجأة وأن أقول شيئا .. ألم أكن الصائد صاحب الدعوة ؟

وكانت أقرب الألفاظ الى شفتى .. كلمات التحية .. فقلتها .. أكتسب بها الوقت .. وأتمالك أعصابى .. وأستعيد طبيعتى المغازلة المرحة ، فقلت .

وأخيرا قالت :

- مساء الخير .

ولم تكن كلمات الغزل قد لانت على شفتى بعد . اذ لم أجد بها ما يدفعنى الى الغزل المخلص الطبيعى .. ووجدت رغبتى فى الاستطلاع تسبق قدرتى على الغزل المجامل المتكلف فقلت متسائلا :

- الى أين ؟

وببساطة أجابت .

- أحضر العشاء .

(عشاء !!) وكادت تنفلت منى صيحة دهشة .. أسرعت فى كبتها .. ولم يكن فى مظهرها المحترم ولا فى الساعة التى تسير فيها .. مايبرر خروج سيدة مثلها لإحضار عشاء ، وسألتها فى لهجة غير مصدقة :

- الآن ؟ تحضرين العشاء ؟

- أجل .. لقد عدت فلم أجد فى البيت طعاما .

- وأين البيت ؟

- فى أحدى العمارات المطلة على السباق .

- ولكن ألم تكونى تعرفين أنه لايوجد فى البيت طعام ؟

- انى أنسى هذه الأشياء .. لاأذكر شيئا عن البيت الا عند عودتى اليه .

مخلوقة عجيبة .. ورد أعجب !

وعدت أتساءل .. دون أن أتنبه الى أن المرأة الغريبة قد حوّلتني من صائد ليل مغازل .. الى وكيل نيابة محقق .

قلت لها :

– ولماذا لم ترسلى أحدا من البيت يحضر لك عشاء ؟

– لأنه لايوجد معى أحد .

وطرقنى ردّها طرقة مثيرة .. لقد بات أمرها سهلا ، من حيث المكان ، فهي تقطن وحيدة .. ويمكننى أن أعود معها الى بيتها .

وكان علىّ أن أتولى احضار العشاء .. وبحثت فى ذهنى عن محل ابتاع منه .. دون أن أسلك طريقا مطروقا يعرضنى واياها للأبصار .. وقبل أن أستقر على رأى سمعتها تقول .

– من فضلك اتجه يسارا .

وكنا قد بلغنا الشارع الجانبى الذى يلف يسارا حتى ينتهى الى شارع سان استفانو الملىء بالمارة والحوانيت .

وأجبت مترددا :

– لماذا ؟

– لأحضر العشاء .

– سأحضره لك أنا من محل أعرفه .

– لا داعى لأن تتعب نفسك .. يوجد بقال على الناصية لى عنده حساب .

وحاولت أن أجادل ولكنها أصرّت .. فلم أجد بدأ من الذهاب الى حيث تريد .

ووقفت بها أمام البقال وهبطت من العربة لتعود بعد لحظات وقد حملت معها بضع لفائف صغيرة .

ومرة ثانية استقرت بجوارى وقلت متسائلا :

– أتعودين الى البيت ؟

وترددت لحظة قبل أن تجيب متسائلة :

– ألا تحب أن تلف بالعربة برهة ؟

– أجل .. أجل .. كما تشائين .

وأدرت العربة مرة أخرى الى شارع السباق وانطلقت أجول بها متتبعا الطرق الخالية فى أطراف الضاحية .

وبدا عليها الشرود وهى تستقر بجوارى في هدوء وصمت ولم تعد أنفاسها تتلاحق لاهثة ، بل بدت عليها السكينة ، والطمأنينة والاستقرار .

وكان علىّ أن أوالى بقية تحقيقاتى .. لأستفسر منها عما غمض علىّ .

قلت أستدرجها من شرودها وأقطع عليها صمتها :

– أتعيشين وحدك .

– أجل .

– ألست متزوجة ؟

– لا .

– ألم تتزوجى ؟

– تزوجت وطلقت .. وتزوجت وطلقت .. وقد أتزوج وأطلق .. وأن الزواج فى حياتى من الحوادث العابرة وليس من الأحداث المقيمة .

– أليس لك أهل ؟

– لى .. ولكنى أفضل أن أقطن وحدى .. انى أعمل فى الفن .. أقوم ببعض الأدوار الثانوية فى السينما والمسرح وأحيانا أعود فى الليل متأخرة .. وأحيانا سكرى .. ولا أحب أن أقلق راحة أهلى أو أسىء اليهم .. ولذلك أفضل السكن وحدى .

ولم يكن هناك شك بعد هذا .. أن المرأة صيد سهل ميسور .. زواج وطلاق .. وفن .. وسكن وحدها ، وسهر ، وسكر .. كل هذا .. ترك المسألة كما يقولون (على بلاطة) .

ولكن المشكلة لم تكن مشكلة السهولة واليسر .. بل كانت مشكلة القابلية والإثارة .

ان المرأة لم يثرنى من اللحظة الأولى .. بوجهها الشاحب المرهق ، وهزالها البادى ، ولقد ظننت أن التلاصق والحديث قد يمنحنى شيئا من الإثارة ، ولكن مشاعرى لم تثر بأكثر من الشفقة والعطف .

ومع ذلك .. وبدافع من العناد .. والإصرار على اتمام المغامرة وجدتنى أسائلها :

– ألا نعود الى البيت ؟

وبلهجة الاستسلام والرضوخ أجابت :

– أمرك .

ووقفت أمام باب البيت ، ووجدتها تجمع اللفائف لتحملها فقلت :

– عنك .. دعينى أحملها لك .

– لاداعى للتعب .. سأحملها أنا .

– ألديك ما يمنع من الصعود معك ؟

وصمتت .. ومضت بها برهة وجوم وتفكير وما لبثت أن تساءلت :

– أتصر على الصعود ؟

– اذا لم يكن لديك مانع .

– أبدا .. لامانع لدىّ .. فقط .. أخشى لغط البواب والسكان وأكره أن يقولوا أنى أحضر رجالا فى البيت ، فانتظر حتى أتأكد أن البواب قد نام وأن الطريق خال .. وسألوّح لك بضوء ثقاب من وراء النافذة الكائنة فى أعلى الدار .

– واذا لم أر الضوء ؟

– يكون من الخير أن تنصرف .

ودلفت الى البيت وجلست أرقب النافذة الصغيرة التى أشارت لى اليها .

أى، أحمق أنا ! ماذا يدفعنى الى الزج بنفسى فى مثل هذه المغامرة ؟ أدخل بيتا لا أعرفه فى منتصف الليل .. مع امرأة لا أكاد أعرف عنها الا ما حدثتنى به عن نفسها مما قد يكون باطلا مكذوبا .. وقد تكون ذات زوج .. وقد يكون بيتها كمينا لاصطياد المأفوفين السذج من أمثالى .. للاعتداء عليهم وسلبهم نقودهم !

ولماذا أفعل كل هذا ؟ من أجل امرأة لا أريدها .. ولا أشعر لها بأية قابلية ، ولم تثر فىّ جارحة .. أو تهيج لى حسا .

يجب علىّ أن أنصرف .. وكفانى هذا القدر من المغامرة . خير لى أن أعود الى البيت لألوذ بأطراف الأمن والراحة وأجنب نفسى شر الكوارث والفضائح .

ومع ذلك لم أتحرك فكثيرا ما ينطلق تفكيرى فى ناحية ويتبلد تصرفى فى ناحية أخرى .. فأظل مقيدا فى موضعى لا سلطان لتفكيرى على تصرفاتى .

وتعلق بصرى بالنافذة العالية التى بدت وراءها رقعة السماء الداكنة بنجومها المتناثرة وقطعة ضئيلة من القمر تعدو على صفحتها نتف من السحب تحجبها تارة وتبرزها أخرى .

وفجأة لاح لى الضوء الباهت يتحرك وراء النافذة ، وأحسست بأعصابى تتوتر .. وبمشاعرى ترهف ، وتملكنى وهم شاعرى ممتع مثير .

نافذة فى السماء .. وسحب متحركة ، وقمر شاحب ، ووقفة مسترقة فى عرض الطريق المظلم الخالى .

وأخيرا ضوء باهت يتحرك المظلم الخالى .

لا .. لا .. انها مغامرة ممتعة .. أيا كانت المرأة التى سأغامر من أجلها .

وبلاهة المغامرين .. طرحت مخاوفى فى عرض الطريق واندفعت اصعد السلم .

وبدأت ألهث عندما وصلت الى الدور الرابع .. فتوقفت وأنا لاأجد أمامى سوى سلم ضيق يؤدى الى السطح ولم أكن واثقا بالضبط من عدد أدوار البيت .. كل ما كنت أعرفه أنها تقطن فى الدور الأخير وأن نافذتها مطلة على الشارع .

ووقفت برهة حائرا وأنا أجد الأبواب أمامى موصدة دون أن أعرف بابها .. ولم يكن من المعقول أن أغامر بطرق أحدها خشية أن أخطىء بغيتى وأفضح نفسى فى مثل هذه الساعة من الليل .

وأنقذنى من حيرتى همسة استدعاء آتية من السطح ورفعت بصرى فوجدت وجهها يطل من أعلى السلم الصغير .

وصعدت السلم فأفضى بى الى حجرة صغيرة فوق السطح .

وأحسست بشىء من الخذلان والخيبة وأنا أرقب الحجرة المتواضعة بمظاهر الفقر والرثاثة البادية منها ، وحاولت جهدى أن أخفى مظاهر خيبتى وأن أسترها بمظاهر المرح المفتعل .

وسمعتها تتمتم فى استحياء وهى تقدم لى مقعدا من الخيزران :

– أنا متأسفة .. الحجرة لاتليق بك .. ولكنك أنت الذى أصررت على الصعود .

وزاد اعتذارها الخجل من احساسى بالشفقة عليها .. وصممت على ألا أخذلها وأن أجعل من مرحى المتكلف مرحا أصيلا .. فقلت ضاحكا :

- انها مكان شاعرى لطيف .

ورمقتنى فاحصة ، ثم أطلقت من أنفها ضحكة قصيرة ساخرة وأجابت :

- انك أنت المجامل اللطيف .

وخيمت على وجهها سحابة معتمة كبتت دوافع المرح فى نفسى وأوقفت كلمات التهريج التى أوشكت على الاندفاع من شفتى .

ومدت يدها الى الدولاب الوحيد الموجود فى الغرفة فأخرجت زجاجة ويسكى قد امتلأ نصفها ووضعتها على المنضدة الخشبية الصغيرة بجوار اللفائف التى أحضرتها من البقال وقالت متضاحكة :

لعلك لاتمانع فى مقاسمتى الزجاجة .. انى فى حاجة اليها كلها ، ولكنى على أتم استعداد للتنازل لك عن نصفها .

- انى لا أشرب .

- غير معقول !

- ولماذا ؟

- مغامر مثلك يطارد النساء فى منتصف الليل .. ويتبعهن الى خدورهن .. ثم لايشرب ؟ خذ لك كأسا .

- حقيقة لا أشرب .

– اذا أصنع لك فنجانا من الشاى ؟

– لا لزوم له .

– أو فنجانا من القهوة ؟

– لا داعى للتعب .

– اذاً تشاركنى عشائى ؟

وسارت الى باب صغير يفضى الى دورة مياه ، وما لبثت أن عادت ومعها بضعة أطباق أخذت تفرغ فيها اللفافات : جبنة وزيتون ، ومرتدلا ، وطرشى .

ودرت ببصرى فى أنحاء الحجرة .. فوجدت خليطا عجيبا من البوهيمية والرثاثة والفوضى .

فراش ما زالت أغطيته مشوشة من نوم الليلة السابقة ، ووسائد بدت عليها آثار الرأس بقذارتها الدهنية جلية واضحة ، وفردة شبشب مقطوعة ، وأعقاب سجائر ، وزجاجات ويسكى وبيرة ونبيذ فارغة .. ومشجب تراكمت عليه مختلف أنواع الثياب النسائية : روب حريرى ، وكورسيه ، وفستان أزرق ، وعلى الأرض بجوار الفراش كوم آخر من الملابس وأعقاب السجائر والصحف والمجلات .

وبجوار الفراش والمشجب استند الدولاب على الحائط بمرآته المشروخة وضلفه التى لاتغلق وأحشائه المطلة بخليط عجيب من الثياب والأوراق والزجاجات ، وتتوسط الحجرة سجادة ناحلة استقرت عليها المنضدة الخشبية وأحاطت بها بضعة مقاعد من الخيزران ومقعد كبير متهالك منهار ، ووسط هذه الفوضى والرثاثة بدا الشىء الوحيد المعتنى

به فى الحجرة والذى لم أجد لوجوده مبررا ولا معنى وهو رف للكتب وضعت عليه عدة كتب مرصوصة بعناية .

وسألتها مستوضحا :

– يبدو لى أنك تقرئين كثيرا ؟

– ان القراءة هى الشيء الوحيد الذى أدمن عليه دون أن ينالنى منه سوء .

وكانت قد انتهت من رص الصحاف ورأيتها تمد يدها الى المشجب فتتناول القميص والروب وتتجه الى الباب الصغير الذى أحضرت منه الأطباق قائلة :

– دقيقة واحدة .. أبدل ملابسي .. انى أحب أن أجلس معك على راحتى .. ألديك مانع ؟

– أبدا .. افعلى كل ما يحلو لك ، ولاتقيمى لوجودى وزنا .

– معك حق .. ما دمت قد غامرت باحضارك هنا .. فليس لى أن أخشى بعد ذلك شيئا .. ليس لدىّ أسوأ مما ترى .

ولم يكن هناك فى الواقع أسوأ مما أرى ، فلا أظن المرأة قد أدخلت فى حسابها قط .. أن رجلا سيزورها فى حجرتها .. فالمرأة التى تتصيد رجلا لتقدم له جسدها لايمكن أن تعرض عليه كل هذه الخفايا المنفرة التى تحرص فى العادة على اخفائها .

ولقد قلت أنى من بداية الأمر لم أحس للمرأة بأى قابلية وأنى كنت أرجو أن تثيرنى المغامرة نفسها ، ولكن جو الحجرة بكل مافيه

من فوضى وقذارة ورثاثة قد قضى على كل ما يحتمل أن تثيره فى نفسى خلوتى بامرأة ، واندماجى فى جو المغامرة .

واختفت المرأة لتبدل ثيابها وبدأت أجد أن مهمتى التى كانت فى مثل هذه المواقف - تنحصر فى استدراج المرأة - قد باتت تنحصر فى كيفية التخلص منها دون أن أجرح مشاعرها أو أولم نفسها .

وعادت الىّ قائلة فى مرح :

أما زلت تصر على ألا تشاركنى الزجاجة ؟ سأضطر اذاً أن أشربها وحدى .. واذا سكرت فأنت المسؤل .. تفضل .. كل على ما قسم .

ولم تكن لى قابلية للطعام .. ولكنى خشيت أن أولمها برفض مشاركتها اياه فاقتربت بمقعدى من المائدة وتشاغلت بالأكل .

وبدأت الخمر تتدفق من الزجاجة الى الكأس .. ومن الكأس الى حلقها .. ورفع الشراب ستار الكلفة والاستحياء الذى كان يسدل عليها وفك عقدة لسانها ، فاندفعت تثرثر فى خفة مستحبة ومجون لذيذة ، وأخذت تروى النوادر عن عملها فى المسرح والسينما وتحكى عن حياتها وراء الكواليس ، ومغامراتها مع المنتجين والمخرجين .

وظللت أجد فى حديثها تسلية ومتعة حتى بدأت الكأس تثقل عليها وأخذت تخبو رويدا رويدا ذبالة المرح التى أشعلتها بضعة الكئوس الأولى ، وبدأت تغمرها موجة من الحنين الحزين .. وكف لسانها عن الثرثرة ليستعيض عنها بالتنهدات والآهات وبدت عليها هيئة العشاق السكارى .

وهنا أحسست أن مشكلتى قد بدأت تتعقد .. وأن علىّ أن أبدأ مهمتى الشاقة فى التخلص منها دون أن أخذلها أو أولمها .

وقرعت المائدة بكأسها ومدت ساقيها وألقت برأسها الى الوراء وأطلقت تنهيدة حارة ، ثم سمعتها تهمس فى شبه أنين :

– دنيـا !

ووجدت أن علىّ أن أقطع سلسلة التنهدات ، وأن أحسر عنها موجة الحزن المرهفة التى تعقب فى نفوس السكارى موجة المرح .

وقلت ضاحكا :

– سأروى لك آخر نكتة سمعتها .

ورفعت الىّ رأسها فوجدت فى عينيها عبرتين وعادت تقول فى صوت خافت وكلمات بطيئة متقطعة :

– بل سأروى لك أنا أول مأساة عرفتها .

ومدت يدها فوضعتها على ظاهر يدى وأطبقت كفها عليها ثم رفعتها الى شفتيها ومست باطنها فى رفق .

وأحسست بأنفاسها تلهب أصابعى .. ووجدت أن المسألة تتطور سريعا .. وأن علىّ – ما دمت لا أريد المغامرة – أن أضع حدا لها .

وسحبت يدى .. فسقطت يدها على المنضدة .. وقلت وأنا أهم بالوقوف :

– يبدو أنك متعبة .. وأظن من الخير أن أنصرف ، وأدعك تسترحين .

وانتفضت كأنما لسعتها عقرب وتساءلت وقد فغرت فاها :

– تنصرف ؟ لماذا ؟

– الوقت متأخر .. وأنت متعبة .

– أنا لست متعبة .. انى فقط سعيدة ، وأنا أبكى عندما أكون سعيدة .. أجلس أرجوك .

وجلست . لقد كان علىّ أن أحتمل .

وعادت المرأة المخمورة ، الباكية من فرط السعادة ، تواصل سلسلة تنهداتها السعيدة .. وتهمس الىّ فى صوتها المبحوح :

– ألم تذق الحب ؟

– ذقته مرارا .

– مرارا ؟ أنت اذا لم تذقه .. ان الحب لايذاق الا مرة واحدة ..

– اما ان ترديك صريعا . او تبعثك حيا .

– وماذا فعلت بك أنت ؟

– أردتنى صريعة بالطبع .. لم تدع لى سوى هذا الحطام الذى تراه .

وخشيت أن تطلب منى أن أبعثها حية فقلت لها مستضحكا :

– أنت ما زلت بخير .. أنك فى أوج صباك .

– صباى ؟! كم تعطينى من العمر ؟

وأنا خبير بعمر النساء .. أعرف أنه لايمكن أن يتعدى الثلاثين .. ولا بعد مائة عام ، وأنهن يعقدن على هذا السن فلا يتجاوزنه أبدا ..

وأعرف كذلك أنهن جميعا تزوجن فى الثالثة عشرة ، وأنجبن الإبنة الأولى فى الرابعة عشرة .

وقلت لها لكى أقطع عليها خط الجدال .

– ثلاثون عاما ؟

– انقص عامين .

– ثمانية وعشرون ؟

وهزت رأسها موافقة .. وهززت رأسى مسلما . لم يكن هناك وقت ولا داع للجدل حول عمر المرأة الهاذية .. لتكن فى الثامنة عشرة ان أرادت .. المهم هو أن تتركنى أنهض ، وهممت بالنهوض مرة أخرى عندما أحسست بكفها فوق كفى وسمعتها تهمس :

– كنت فى الثالثة عشرة .

وتوقعت أن تقول (عندما تزوجت) ثم تردف بالجملة الطبيعية (وأنجبت ابنتى الأولى فى الرابعة عشرة) ولكنها خذلتنى وقالت :

– عندما أحببت .

وكان علىّ أن استسلم لسماع قصة حبها .. الذى أرداها صريعة . وتركها حطاما .. واستمرت تتحدث فى صوتها الخافت وتنهداتها المتقطعة :

– وكنت وقتذاك .. على النقيض مما ترانى .. كنت سمينة .. سمينة جدا .. وكانت أمى فخورة بسمنتى .. كأنما كانت تثبت بى قدرتها على التغذية .. أو كأنما كنت لديها وزة أو بطة ، ولم تكن

سمنتى كطفلة شيئا مزعجا .. بل كانت أمرا مستحبا .. وكنت طفلة نموذجية اذ كان وجهى جميلا متوردا ، وأنت تدرى قيمة سمنة الجسد وحلاوة الوجه فى الأطفال .. ولكن هذه السمنة المستحبة بدأت تنقلب أمرا بغيضا ، ولاسيما أنها أخذت تزداد عاما بعد عام ، وبدأت أضيق بسمنتى .. بعد أن بلغت الثالثة عشرة .. ودخلت فى دور المرأة .. ورغم ضيقى بها لم أكن أجدها شيئا مخيفا .. حتى أحسست بالحب .

– أحسست بالحب ، وأنت فى الثالثة عشرة ؟

– أجل .

– أهذا هو الحب الذى حطمك ؟! انه عبث صبية .

– انتظر حتى أروى لك .. كان يقطن على مقربة منا ، وكانت بين أمى وأمه صداقة جيرة ، وأحببته أنا .. أحببته حبا حقيقيا . وليس عبث صبية كما تقول .. وأحب هو أختى النحيلة .. النحيلة بالنسبة لى طبعا .. أو ربما لم يحبها .. بل عبث معها .. ما سميته أنت عبث صبية .. ولم يحاول أن ينظر الىّ فقد كان جسدى السمين .. لايمكن أن يجعل منى أكثر من مادة للفكاهة والضحك .. وطويت مشاعرى فى صدرى .. وكانت كتل الشحم الراسخة عليه .. أسمك من أن تشع عاطفة أو احساسا .. كنت يائسة منه يأسا مطلقا .. زاده ما سمعته من أمه .. من أنه يكره السمان .. ويحب الفتاة الخفيفة كالفراشة .

وتستطيع أن تتخيل أية عقد ركبتها السمنة فى نفسى .. ولاسيما وأنا أسمع في كل آونة من أمى هذه الجملة التقليدية (لو وضع وجهك على جسد أختك .. كوّنتما أجمل مخلوق فى العالم) .

وكان وجهى جميلا حقا .. ولكن ماذا يمكن أن يجدينى وهو على هذا الجسد الهائل .. لقد كنت على استعداد لأن أمنحه لأختى .. أو لأى مخلوق اذا استطاع أن يأخذ معه هذه الكتل الشحمية التى ترسب علىّ .

وسمعت من أمه ذات مرة أنه قال ان وجهى جميل .. فبدأت أحدق فى المرآة .. وأحسست بشىء من الاعتزاز به .. ونفذت الى نفسى بارقة أمل لأول مرة .

ان هناك ما يعجبه فىّ .. وأنا أستطيع أن أفوز بحبه .. لو حطمت هذا السد الكائن بينى وبينه ، أعنى : جسدى .

وهنا بدأت معركة هائلة .. بينى وبين جسدى .. أو على وجه أدق .. الكتل الشحمية المرصوصة عليه .

وصممت على أن أكسب المعركة .. فقد كنت أشعر أنها معركة فى سبيل حياتى .

وسافر هو وقتذاك فى بعثة الى أوروبا ، وأحسست بشىء من الغبطة ، وبدا لى أن سفره كان تدبيرا من عند الله حتى أخلو بجسدى فى المعركة .. وحتى أفاجئه عند عودته بمخلوقة أخرى .. تكون أهلا لحبه .

واندفعت فى المعركة .. بجنون وقسوة .. وبغير رفق ولا هوادة ، ولست أريد أن أثقل عليك بالتفاصيل .. المهم هو أنى كسبت المعركة .. والدليل الواضح هو هذا الهيكل الذى تراه أمامك .. انتصرت .. ولكن بثمن .. ثمن ضخم .. كاد يكلفنى حياتى .

لقد أعيانى (الرجيم) الحاد .. والإجهاد المضنى .. وبدأت كتل الشحم تنهار ، وتنهار معها قواى ، وعندما بدأت أجنى ثمار المعركة وأختال بجسدى الضامر النحيل .. خررت صريعة .. بعد أن أصبت بنزيف فى الرئة .. عرضنى للإصابة بالسل .. وكاد يدمر حياتى .

وصمتت المرأة وبدا عليها الإعياء وانتظرت أن تقول شيئا عن نتيجة انتصارها .. عن الهدف الذى من أجله دخلت المعركة .. عن الربح الذى كانت ترجوه ، والثمن الذى كانت تأمل فيه .

وطال صمتها حتى اضطررت الى أن أستحثها قائلا :

– وصاحبنا .. ماذا فعلت معه ؟

ورفعت كتفيها وأطلقت من أنفها ضحكتها القصيرة المريرة الساخرة :

– لاشىء .. لاشىء أبدا .. عندما عاد .. كنت أرقد صريعة الداء .. وكانت جيرتنا قد انتهت منذ فترة طويلة .. ولم يكن لديه أقل فكرة عنى .. كنت بالنسبة له شيئا مجهولا ، وعندما شفيت من الداء – ان كنت قد شفيت – طوتنى أعاصير الحياة .. تزوجت وطلقت .. وتزوجت وطلقت .. واندفعت ألاطم أمواج العيش .. فلم يبق منى أكثر مما ترى .. لقد ضاع انتصارى فى المعركة سدى ، وذهب ربحى فيها هباء .

ومددت يدها مرة أخرى لتضعها على يدى ، ولكنى سحبت يدى ونهضت .. كانت الساعة قد بلغت الثانية وكان علىّ أن أعود الى البيت .

ورأيتها تتطلع الى فى جزع متسائلة :

– إلى أين ؟

– أظن الوقت قد حان للعودة .

ونهضت متساندة الى المنضدة ونظرت الىّ نظرة راجية :

– ألا تبقى قليلا ؟

– سآتى اليك مرة أخرى .

وكنت قد وصلت الى باب الحجرة وفتحته مصمما على الخروج .. ومددت يدى أصافحها مودعا .. وأمسكت بيدى لاتريد أن تتركها ، وهتفت فى توسل أليم :

– ألا تريدنى ؟

وأحسست أنى أذللت المرأة باضطرارها الى عرض نفسها .. وخيل الىّ أن خير ما أفعل هو أن أعوّضها بالنقود .. وأن أدفع لها ثمن ما كان يجب أن أفعله .

ومددت يدى فأخرجت بضع ورقات مالية ، ثم دسستها فى يدها .

وبدأ عليها ألم مروّع كأن الأوراق جمرة لسعتها ، ووجدتها تطبق عليها بعصبية وتدفعها الىّ وتهمس :

– أهذا هو الذى أقبضه بعد طول انتظار ؟

وفجأة .. وكما يبرق وميض البرق .. بدت لى فى ملامحها الشاحبة الهزيلة .. صورة قديمة باهتة لوجه سمين متورد ممتلىء .. وجه طوته الأيام ومحاه الزمن .

وتذكرت بيتنا في حى السيدة .. والصبية الصغيرة السمينة التى لمحتها فى دارنا مرة أو مرتين .

أحسست بأنى أكاد أتهاوى فى موضعى ونظرت الى الطير الجريح وهو يترنح أمامى وقد بدت فى عينيه نظرة عتاب أليم ، وانساب الدمع من مآقيه .

وشددت على يدها فى صمت مشدوه دون أن أجسر على أن أقول شيئا .. وانحدرت على الدرج كالهارب من شبح ، أو العائد من جنازة .

وعندما وصلت الى الطريق رفعت رأسى ، فوجدت شبحها فى النافذة العالية تلوّح بيدها فى بطء وقد أحاطت بها الرقعة الداكنة والنجوم المتناثرة وقطعة القمر المختفية وراء السحب .

وانطلقت بى العربة وأنا أطبق على عجلة القيادة بيد ، وباليد الأخرى أطبقت على الأوراق المعادة .. أو على الثمن المرفوض .

* * *